رحلة حج أبي الحسن الشاذلي
عبر صحراء عيذاب منتصف القرن ٧هـ/١٣م وأثرها الروحي في سودان وادي النيل

أ. إسماعيل حامد إسماعيل علي

مقدمة:

تَرصُد هذه الورقةُ واحدةً من أهم الرحلات التي مرت عبر طريق الحج المصري، وهو المعروف بطريق (قوص– عيذاب). وهذا الطريق كان يسلكه الحجاج القادمون من بلاد المغرب العربي، وكذلك حجاج بلاد السودان الغربي، والسودان الأوسط، ولهذا كانت مدينة قُوص توصف بأنها "ملتقى الحجاج المصريين والمغاربة والسودانيين". وتلك الرحلة قام بها أحد أئمة التصوف الكبار، وهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي" (٥٩٣–٦٥٦هـ/١١٩٧–١٢٥٨م). بدأ الشاذلي رحلته إلى الحج قادمًا من مدينة الإسكندرية، ثم سلك الطريق من القاهرة إلى الصعيد عبر نهر النيل حتى مدينة قوص، ثم اتجه إلى صحراء عيذاب. والمعروف أن الشاذلي قام بالعديد من رحلات الحج، وقد وافته المنية خلال إحداها، وكان الشيخ لايزالُ في صحراء عيذاب، ثم دُفِن بـ"الحُميثراء" في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقبره هناك مزار معروف يرتاده محبوه، وأتباع طريقته. ورغم ذلك لم تنل هذه الرحلة الاهتمام من المؤرخين بقدر مكانة الشيخ الشاذلي بين أعلام التصوف.

تعجُ كتب التصوف بكرامات أبي الحسن الشاذلي خلال هذه الرحلة، ولعل منها فيما يُروى لقاءوه بالخَضِر عليه السلام بـ"صحراء عيذاب" حسب ما ورد في الروايات الصوفية. وثمة أمرٌ مهم تهدف الورقةُ إلى الحديث عنه فيما يرتبط بهذه الرحلة، وأثرها الروحي والديني في سودان وادي النيل، خاصة مع انتشار "الطريقة الشاذلية" هناك والتي تُعد واحدة من أقدم الطرق الصوفية في هذه البلاد، والمؤكد أن ذلك يرتبط برحلة أبي الحسن الشاذلي، ووجود قبره بـ"صحراء عيذاب".

وعلى أية حال تحاول هذه الورقةُ أن تُميط اللِثام عن أسرار هذه الرحلة، وما رافقها من أحداث، كما أنها تصف مسالكها، ودروبها عبر الصحراء، خاصة المحطات الصحراوية التي تمتد من مدينة قوص وحتى ثغر عيذاب، وما ارتبط بهذه الرحلة من كرامات الشيخ، ثم وفاته بـ"صحراء عيذاب"، ودور هذه الرحلة في انتشار الطريقة الشاذلية في سودان وادي النيل، وأشهر شيوخ الطريقة، وأثرهم بين السودانيين. وتناقش الورقة هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

أولاً – أبوالحسن الشاذلي (شخصيته ومكانته).

ثانيًا – قدوم الشاذلي من تونس إلى مصر.

ثالثًا – وصف طريق الحج الذي سلكه الشاذلي: (قوص– طريق العبدين– ماء دنقاش – ماء شاغب – أمتان – مجاج – رملة ميثاء – العشراء – ماء الخبيب – الحُميثراء – عيذاب).

رابعًا – كرامات الشاذلي خلال رحلة الحج في صحراء عيذاب.

خامسًا – وفاة الشاذلي في حميثراء بصحراء عيذاب (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

سادسًا – الأثر الروحي لرحلة حج الشاذلي في سودان وادي النيل.

أولاً – أبو الحسن الشاذلي (شخصيته ومكانته):

هو الشيخ علي بن عبدالله بن عبد الجبار الشاذلي (٥٩٣–٦٥٦هـ/١١٩٧–١٢٥٨م) [١]، ويُكني أبا الحسن، وهو ينتسب إلى قرية تدعى "شاذلة" (*)، وهي من قرى أفريقية [٢]. غير أن الشاذلي ولد في إحدى قرى مدينة "سبتة" بالمغرب

---

[١] وللمزيد عن شخصية الشيخ أبي الحسن الشاذلي، انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٧ الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م ص٦٨–٦٩، الشعراني: الطبقات الكبرى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠١١م، ص٣٦٣–٣٧٠، ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، مكتبة القاهرة، ١٩٦٤م، ص٧ وما بعدها، على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، جـ١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٧٩، ود ضيف

الأقصى، وتدعى "غمارة" [٣]. وقيل في بعض المصادر الأخرى إن المدينة التي وُلد بها تُعرف بـ "بستة" [٤]، غير أن اسم "سبتة" هو الأصح. وتصف المصادر أباالحسن الشاذلي بـ "الضرير"، إذا كان قد أُصيب بالعمى قبل موته [٥]. وينتسب الشيخ الشاذلي لنسل آل البيت، إذ ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما [٦]. وهو مؤسس "الطريقة الشاذلية" المعروفة، وهي واحدة من أهم الطرق الصوفية التي لاقت انتشارًا، ولهذه الطريقة وجود قوي في العديد من البلدان، منها: مصر، والمغرب، وسودان وادي النيل. وفي وصف أبي الحسن الشاذلي، ومكانته، قال ابن عطاء الله السكندري: "قُطب الزمان، وزمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القُطب، الغَوث.."[٧].

أخذ أبو الحسن الشاذلي العلم صغيرًا، وتتلمذ على يد كبار العلماء والفقهاء في بلاده، ولعل أهمهم: الشيخ عبد السلام بن مشيش (*)، والشيخ نجم الدين الأصفهاني [٨]، والشيخ أبو عبدالله بن محمد بن الحسن، وهو المعروف باسم "ابن حرازم" [٩] وغيرهم. وكان الشاذلي نحيف الجسد، طويل القامة، خفيف العارضين[١٠]. كما تصفه المصادر بأنه عالم، وفقيه، فصيح اللسان، وعذب الكلام[١١]. وعن غزارة علمه، وسعة مداركه، فإنه لما قيل لأبي الحسن الشاذلي: "من شيخُك ؟ قال: أما فيما مضى فعبدالسلام بن مشيش، وأما الآن فإني أُسقى من عشرة أبحر، خمسةٌ سماوية، وخمسةٌ أرضية.."[١٢]. وذاعت شهرةُ أبي الحسن في تونس، وزاد أتباعه، لما كان يتمتع به من سعة العلم، والفهم، إذ كان عالماً، فقيهاً أبهر

الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط٣، دون تاريخ، ص٨، وانظر أيضا:

J. Spencer trimingham: A History of Islam in West Africa, Oxford Paperback Oxford University Press, Londen, 1975, P. 157

(*) شاذلة: وهي تكتب بالشين والذال المعجمتين، وهي قرية من قرى أفريقية، وهي تقع في تونس حالياً، وقد سُمي أبا الحسن الشاذلي بهذه المدينة رغم أنه لم يولد بها، لأنها كانت أكثر المدن التي ارتبط بها الشيخ (وللمزيد، انظر على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، جـ١٤، ص١٨١)

[٢] الشعراني: الطبقات الكبرى، ص٣٦٣

[٣] عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م، ص١٢٤

[٤] على باشا مبارك: المصدر السابق، ص١٨١، والراجح أن هذا الاسم (أي بستة) ليس إلا تصحيفا لاسم سبتة، وربما يكون ذلك خطأ وقع فيه الناسخ الذي دون مخطوطة هذا الكتاب.

[٥] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٦٩

[٦] أما نسب أبي الحسن الشاذلي إلى الإمام الحسن، فهو: هو علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن يوسف بن.. محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (انظر عامر النجار الطرق الصوفية، ص١٢٤)

[٧] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣.

(*) عبد السلام بن مشيش: هو شيخ أبي الحسن الشاذلي، توفي سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، وكان ابن مشيش قد أخذ العلم عن شيخه "أبي مدين شعيب" (ت: ٥٩٤هـ/١١٩٧م)، كما أنه أخذ عنه أفكاره في التصوف، وهي أيضاً التي تأثر بها أبو الحسن الشاذلي بعد ذلك، والتي لاقت ذيوعاً بقوة في بلاد المغرب العربي، وشمال أفريقيا، ولاسيما فيما يخص التعاليم Sufi Teachings ، والطقوس الصوفية، وكذلك ما يرتبط بـ "نظام التصوف" Decipline .

(وللمزيد، انظر J. Spencer trimingham: A History of Islam in West Africa,P. 157

[٨] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣

[٩] علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٨٠

[١٠] المصدر السابق، ص١٨١

[١١] المصدر السابق، ص١٨١

[١٢] النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ٢، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ، ص٣٦٣

الناس بمعارفه، وهو ما جعل المعاصرين له من العلماء يشعرون بالغيرة منه، وحسدهم له، وكان من بين هؤلاء قاضي القضاة ابن البراء.[١٣]

ثانيًا – قدوم الشاذلي من تونس إلى مصر:

لما شعر أبوالحسن الشاذلي بما يجيش بأفئدة أنداده، عزم على الرحيل من تونس، والذهاب إلى الديار المصرية، والإقامة بها. وعندما علم السلطان بذلك قال له الشاذلي: "ما خرجتُ إلا بنية الحج، وإذا قضى الله حاجتي أعود إلى تونس..")[١٤]، عندئذ سمح له السلطان بالرحيل من البلاد. ويذكر أبوالحسن الشاذلي أنه ذهب إلى الديار المصرية بناءً على رؤية رآها، وفيها يأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينتقل إلى هذه البلاد، ومن ثم الإقامة بها[١٥].

وعلى هذا فإن أباالحسن الشاذلي ترك بلاده بسبب الظروف التي كان قد تعرض لها، واختار مصر بناء على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه حسب بعض الروايات لما قدم إلى هذه البلاد قال: "لما وصلتُ الديار المصرية، قلتُ: يارب أسكنتني بلاد القبط أُدفن بينهم، فقيل لي: يا علي تُدفن في أرض ما عُصيتُ عليها قط[١٦]) . وقبل أن يصل الشاذلي مصر، بعث قاضي القضاة في تونس برسالة لسلطان مصر في ذلك الوقت الملك "الكامل محمد بن الأيوبي" ليحذره من الشاذلي، وذكر فيها أنه "شَوّشَ علينا بلادنا، وكذلك يفعل ببلادكم"[١٧].

لم يكد أبو الحسن الشاذلي يطأ الإسكندرية حتى قُبض عليه، وعُقد له مجلس من الفقهاء والعلماء ليمتحنوه. وبعد أن تم لهم ذلك، أدركوا ورع الشيخ، وسعة علمه. وأدرك السلطان مكيدة قاضي القضاة، وغيرته من الشاذلي، فأكرمه، وأحسن وفادته[١٨]. ولما استقر بالإسكندرية، كان أشهر العلماء بها في أيامه أبو الحسن الواسطي، وكان يعلم مكانة الشاذلي، كما كان الشاذلي يعلم مكانة هذا الفقيه، ولهذا فما أن قدم هناك حتى وقف بظاهر المدينة، واستأذن الواسطي ثم قال: "طاقيةٌ لا تَسَعُ رأسين.."[١٩]. وأراد الله أن يخلو المكان للشاذلي، وأن يكون وحده مقصد طلاب العلم دون ندٍ، فمات الواسطي في ذات الليلة التي قال الشاذلي فيها ذلك[٢٠].

وطاب للشاذلي المُقام بالإسكندرية، وبقي بها حوالي ١٤ سنة منذ ٦٤٢هـ/١٢٤٤م إلى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى وفاته بـ "صحراء عيذاب"[٢١]. وكانت له مجلس علم بالإسكندرية بمسجد العطارين، كما كانت له مجالس بداره، وكان محبوه يأتون إليه من كل حدب وصوب. كما كان يحضر دروسه كبار العلماء والفقهاء، منهم: العز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، والحافظ المُنذري، وابن الصلاح، وابن الحاجب[٢٢]. وكانت داره بأحد أبراج سور المدينة حبسه السلطان عليه، وعلى بنيه، وكان أسفله مرابط للماشية، وأوسطه دار للفقراء، وجامع كبير[٢٣].

---

[١٣] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣، وانظر أيضا عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص١٢٨

[١٤] عامر النجار: المرجع السابق، ص١٢٨

[١٥] المرجع نفسه.

[١٦] ابن عياد الشاذلي: المفاخر العلية، ص٥٤، على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٩

[١٧] عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص١٢٨

[١٨] المرجع السابق، ص١٢٨

[١٩] النبهاني: جامع كرامة الأولياء، جـ٢، ص٣٦٤

[٢٠] المصدر السابق، ص٣٦٤، وعن ذلك قال المناوي: "وذلك لأن من دخل بلدا على فقير بغير إذنه، فمهما كان أحدهما أعلى مقاما سلب الآخر، أو قتله ..." (انظر النبهاني: المصدر السابق، ص٣٦٤)

[٢١] الشعراني: الطبقات، جـ٢، ص٣٦٣، عامر النجار: المرجع السابق، ص١٢٩

[٢٢] عامر النجار: المرجع السابق، ص١٣٢

[٢٣] المرجع السابق، ص١٣٢

ثالثًا – وصف طريق الحج الذي سلكه الشاذلي (قوص – عيذاب):

كان أبو الحسن الشاذلي يهفو قلبه إلى أرض مكة، وبعد أن أقام بمصر صار خروجه للحج أمرًا ميسورًا عن ذي قبل، إذ كانت مصر مقصد المغاربة والسودانيين للذهاب إلى الحج، وكان طبيعياً أن تكثر زياراته إلى مكة[٢٤]. ولهذا قال الشعراني: "وحَج (أي الشاذلي) مراتٍ.." [٢٥]. وكانت مدينة الإسكندرية في ذلك الوقت مقصد الحجاج من المغرب الأقصى، وخاصة القادمين من "سبتة" التي وُلد بها الشاذلي، وكان الرحالة ابن جبير اتخذ ذات الطريق قبل ذلك بحوالي أقل من قرن[٢٦]. وقد اتخذ الشاذلي في رحلته إلى الحج ذات الطرق والمسالك التي كان يسلكها الحُجاج المغاربة، وهي أيضا ذاتها التي كان يعبرها الحُجاج القادمون من بلاد السودان الغربي والأوسط إلى بلاد الحجاز، وهو طريق "قوص – عيذاب"، خاصة وأن طريق بلاد الشام (*)، أو "الدرب الشامي" [٢٧]، كان في ذلك الوقت تُحيط به الكثير من المخاطر، وانعدام الأمن بسبب "الحروب الصليبية"، وهو الطريق الذي كان يمر عبر القلزم (السويس) وبلاد الشام[٢٨].

وخلال القرن ٦هـ/١٢م وهي الحقبة التي ارتحل فيها الشاذلي إلى مصر كان الصليبيون يسيطرون على طريق العقبة، وشمالي البحر الأحمر[٢٩]. وكانوا يعتدون على قوافل الحج التي تمر من بلاد الشام[٣٠]. ولهذا اضطر الحجاج أن يأخذوا طريق الفسطاط إلى قوص عبر النيل، ثم يسلكون طريق الصحراء إلى عيذاب[٣١]. وعلى أية حال، كان يوم خروج

---

[٢٤] الشعراني: الطبقات، جـ٢، ص٣٦٣

[٢٥] المصدر السابق، ص٣٦٣

[٢٦] ٣) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠، محمد عبدالله عنان: تراجم اسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م ص٣٢٨، آنخل جونزالز بالنسيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ص٣٦١، وللمزيد عن طريق الحج، انظر ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٢–٤٣، ابن الطيب: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، دارالعراب، دون تاريخ، ص١٦٠، النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م ص٢٩٢، الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص٦١٥، بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة: فؤاد أندراوس، تقديم: محمد الصياد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١٦م، ص٣٢١، شوقي الجمل: كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين كمصدر لتاريخ العرب (كتاب وصف افريقيا للحسن بن محمد الوزان، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣٧٣، ديفيد جورج هوجارت: اختراق الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٣٩٥.

(*) طريق الحج عبر بلاد الشام: وللمزيد عن هذا الطريق، انظر النابلسي: رحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز)، ص١٥٦، هشام بن محمد عجيمي: قلعة الأخضر في طريق الحج الشامي دراسة تاريخية وثائقية، المجلة المصرية للآثار الإسلامية (مشكاة)، عدد ٢، ٢٠٠٧م ص٢٣٩.

[٢٧] ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٧

[٢٨] للمزيد انظر آنخل جونزالز بالنسيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٣٦١، عادل عبدالحافظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٧٥، جلال يحيى: البحر الأحمر والاستعمار، المكتبة الثقافية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٣

[٢٩] أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ٣ (مواكب مصر واحتفالاتها)، ترجمة: الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م، ص١٤٤، ويذكر الرحالة التركي أوليا جلبي أيضا أن موكب الحج كان يخرج في يوم ٢٣ من شهر شوال، وكان أهل مصر يقومون باستئجار الدكاكين قبل خروج الموكب بحوالي خمسة أو عشرة أيام، ويقول أيضا: "في ليلة الموكب ... يتجمع جميع المشايخ العظام والعلماء الكرام وكتخدا أمير الحج وعساكر وجنود أمير الحج، ويتجه الجمع الغفير ليأتي الموكب العظيم من المحل الشريق قراميدان.." (انظر، الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش: جـ٣، ص١٤٤–١٤٥).

[٣٠] وللمزيد، انظر عليه عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الإسلامية في العصور الوسطى، ندوة تاريخ سواحل مصر الشمالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٧٣

[٣١] نعوم شقير: تاريخ السودان، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم، دون تاريخ، ص٧٦

"موكب الحج" من القاهرة يُعرف باسم "يوم المحمل"[٣٢]. وكان خروجه يوماً عظيماً، يصفه "أوليا جلبي" بقوله: "إن موكب الحج هو عيد أيضاً من أعياد المصريين"[٣٣]. وقال عنه ابن بطوطة: "هو يوم مشهود" [٣٤]. أما عن كيفية ترتيب يوم خروج الموكب، والاحتفالات التي تصاحبه، فكان يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال، والمُحتسب، وكان يركب معهم أعلام الفقهاء، وأمناء الرؤساء، وكانوا يقصدون باب "قلعة الجبل" حيث يقابلهم السلطان، وكان يخرج لاستقبال الموكب[٣٥].

وكان السلطان يعين رئيساً للموكب، يُعرف بـ"أمير الحج"، وكان يرافقه جند الحماية، وكذلك السقاؤون على جمالهم، ويجتمع للموكب أصناف غفيرة من أهل القاهرة والأقاليم احتفالاً بهذه المناسبة. وقبل خروجه كان الموكب يطوف شوارع القاهرة، وكان خروجه من باب النصر[٣٦]. وحسب ابن بطوطة، كان موكب الحج يخرج في شهر رجب [٣٧]، بينما يذكر آخرون أن خروجه كان في شوال[٣٨]. يقول ابن الطيب: "وافق خروجنا من مصر يوم الإثنين السادس والعشرين من شوال.."[٣٩]. وكان الحجاج تزيد أعدادهم عند كل منزل، وكانت توجد في الطريق إلى مكة الأربطة والزوايا، والخانقاوات التي كانوا ينزلون فيها، وكانت تُحبس عليها أوقاف كثيرة لخدمتهم[٤٠]. وهو ما يشير إلى أن الموكب كان يلقي رعاية من السلاطين لاتمام الشعائر، ومن جانب آخر كسباً لود الناس وحبهم. وكان الشاذلي يغادر الديار المصرية برفقة موكب الحج إلى الصعيد عبر النيل، ثم يتجه لقوص حيث تلتقي قوافل الحج هناك، ثم يعبرالصحراء إلى عيذاب[٤١].

---

[٣٢] عادل عبدالحافظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة، ص٧٥، سعيدعبدالفتاح عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، المكتبة الثقافية، ١٩٦٤م، ص٥٠، وكان أرناط أمير الكرك بالشام أرسل حملة برية وبحرية لقطع طريق الحج عبر الشام، ووصلت السفن الصليبية للبحرالأحمر، واعتدت على عيذاب. وكان أرناط ينوي الاعتداء على قبر الرسول، وهدم الكعبة. وقتل الصليبيون وأسروا عددا كبيرة من الحجاج، ولهذا بادر الملك العادل بتجهيز حملة بحرية للبحر الأحمر، وطاردت الصليبيين، وتمكنت من الافراج عن كثير من الأسرى، وأسر عددا كبير من الصليبيين سنة ١١٨٣م (انظر عنان: تراجم اسلامية، ص٦٦). ورغم ذلك ظل طريق الحج عبر الشام تحيط به المخاطر، وهو ما جعل ابن جبير في رحلته للحج يمضي عبر طريق قوص – عيذاب، وعن ذلك يقول آنخل جونزالز Angel Goonzalez : "وركب (ابن جبير) البحر سنة ١١٨٣م من جزيرة طريف الى سبتة والاسكندرية، ولما كان الطريق من مصرالى بيت المقدس في يد الصليبيين في ذلك الحين، فقد توجه ابن جبيرالى قوص بصعيد مصر، ومنها الى عيذاب حيث البحر الأحمر..وقصد مكة الى بيت الله الحرام" (تاريخ الفكرالأندلسي: ص٣٦١).

[٣٣] أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ٣، ص١٤٤

[٣٤] الرحلة: جـ١، ص٤٢

[٣٥] المصدر السابق، ص٤٢

[٣٦] أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ٣، ص١٤٤

[٣٧] ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٢-٤٣

[٣٨] انظر رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة: ص١٦٠

[٣٩] انظر رحلة ابن الطيب: ص١٦٠، وعن موعد خروج الموكب، قال ابن شداد: "فيها (أي في سنة ٦٧٥هـ) جهز مولانا السلطان في خامس عشر شهر شوال الكسوة برسم الكعبة...وخرج معه جماعة من الحجاج وسار إلى مكة حرسها الله.."(ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩م، ص١٣٧، وعن موعد خروج الموكب انظر أوليا جلبي: الرحلة، جـ٣، ص١٤٤، ولعل اختلاف موعد الخروج بسبب طول الطريق، فإذا سلك الموكب طريق الشام، فكان يحتاج لمدة أطول، ولذا كان الحجاج يخرجون مبكرا في رجب حتى يمكنهم الوصول لمكة قبل آوان الحج، أما إذا سلك الموكب طريق (قوص – عيذاب)، وهو الطريق الأقصر فإنهم كانوا يخرجون في شوال.

[٤٠] وللمزيد عن خروج موكب الحج والوقت الذي يخرج فيه من القاهرة، أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ٣، ص١٤٤، عبدالعزيز أمين عبد الجواد: التربية في السودان، جـ١، وزارة المعارف العمومية، ص٥٠

[٤١] على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٨٧

وحسب الروايات الصوفية، فإن أبا الحسن الشاذلي لما آراد أن يحج حجته الأخيرة التى مات خلالها حدثت له عدة كرامات[٤٢]. ومن ذلك أنه لما توجه قاصدًا قوص قادمًا من الإسكندرية ليرافق موكب الحج، قال لرفاقه: احملوا معكم فأسًا ومسحاة، فإن توفي منا أحدٌ وارياناه التراب. ولم تكن هذه عادته في أسفاره في الماضي، وكانت هذه إشارة لموته خلال هذه الرحلة[٤٣].

ومن ذلك أيضا أن أبا الحسن الشاذلي لما توجه إلى الحج، قال: في هذا العام أحجُ بالنيابة، ولما مات قبل أن يتم مناسك الحج، عاد رفاقه للقاهرة، وسألوا الشيخ العز بن عبدالسلام بما قاله الشاذلي، فبكى، وقال: "الشيخ والله أخبركم بموته في سفره، وما عندكم علم به، وقد أخبركم أن المَلَك هو الذي يحجُ نيابة عنه"[٤٤]. وكان الطريق الذي سلكه الشاذلي من قوص إلى عيذاب طريقاً وعراً، قليل الماء، وليس به الكثير من العمران[٤٥]. غير أن انتقال طريق الحج من الشام إلى هذا النواحي أعطاها أهمية كبيرة عن ذي قبل، وصارت محطات الطريق مقصد القوافل التجارية، وكذلك قوافل الحج التي صارت تُعرف بعد ذلك بـ"القوافل العيذابية" [٤٦]. لأنها كانت تقصد ثغر عيذاب الذي نال أهمية كبيرة في العصور الوسطى. وكان طريق الصحراء من قوص لعيذاب يضم العديد من المحطات التي يجب على الحجاج عبورها الى ساحل بحرالقلزم، وموانيها. ولعل أهم محطات هذا الطريق الذي سلكه الشاذلي في رحلته إلى الحج:

١ – قوص:

تُعد هذه المدينة من أهم المحطات التي تقصدها القوافل من المغرب للإسكندرية، ثم تتجه للقاهرة، ثم تذهب جنوباً عبر النيل إلى قوص، وهي المحطة الرئيسية التي يعبرها الحجاج إلى عيذاب [٤٧]. ويصفها ابن بطوطة: "مدينة عظيمة، لها خيرات عميمة، بساتينها مونقة"[٤٨]. وكانت قوص مقرًا لولاة الصعيد، وكان واليها يُعرف باسم "مُتوليّ الأعمال القوصية" [٤٩]، نظراً لأهمية المدينة من الناحية الإدارية، ولموقعها الجغرافي المتميز وسط الأراضي المصرية [٥٠]. ولعل أهمية قوص، وعمرانها، وازدهارها يرتبط باعتبارها من أهم المحطات التي تقصدها القوافل، ولهذا تصفها المصادر بأنها كانت "ملتقى الحجاج المغاربة، والسودانيين، المصريين"[٥١].

كما أن قوص كانت تعد محطة تجارية مهمة عبر الصحراء، وكانت مقصدًا للتجار القادمين من بلاد الهند واليمن، وكذلك التجار الأحباش، نظراً لكثرة الصادر والوارد إليها من السلع والبضائع "لأنها محط للرحال، ومجتمع الرفاق"[٥٢]. وكان طريق السفن المُحملة بمنتجات بلاد الهند يلتقي وسط بحر القلزم بطريق الحجاج الأفارقة والمغاربة الذاهبين إلى بلاد

---

[٤٢] وللمزيد عن هذه الكرامات التي وقعت لأبي الحسن الشاذلي خلال رحلة الحج، انظر ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، ص٥٦، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣ وما بعدها، النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ٢، ٣٦٥، على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٩

[٤٣] علي مبارك: المصدر السابق، ص١٧٩

[٤٤] ابن عياد: المفاخر العلية، ص٥٦

[٤٥] للمزيد انظر ابن جبير: الرحلة، ص٧٠ – ٧٢، ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٨

[٤٦] ابن جبير: المصدر السابق، ص ٧٢

[٤٧] ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٧، ابن جبير: الرحلة، ص٧٠، على باشا مبارك: الخطط، جـ١٤، ص١٧٣، نعوم شقير: تاريخ السودان، ص٧٦

[٤٨] الرحلة: جـ١، ص٤٧

[٤٩] النويري: نهاية الإرب، جـ٣٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص٩٥، مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، ١٩٧٢م، ص٢٣١

[٥٠] ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٤٧

[٥١] انظر ابن جبير: الرحلة، ص٧٠، على مبارك: الخطط، جـ١٤، ص١٧٣

[٥٢] ابن جبير: الرحلة، ص٧٠

الحجاز[٥٣]. وهو ما يشير في ذات الوقت إلى ارتباط الحركة التجارية بقوافل الحج التي تعبر قوص، وربما كان ذلك أمراً مقصوداً، إضافة إلى أن قوافل الحج كان يرافقها عدد كبير من التجار، ولذا لم يكن من المُستغرب أن تُوصف قوص بأنها "محطة مهمة في طريق تجارة الهند" [٥٤]. وعلى هذا ازدهرت مدينة قوص من الناحية العمرانية، وزادت بها المساجد، والمدارس، وانتشرت البساتين والحدائق، كما ازدهرت بها الأسواق والوكالات التجارية[٥٥]. ولاريب أن كثرة الأسواق بها كان عاملاً مهماً في أن يجد الحجاج ما يحتاجون إليه من الزاد والطعام قبل عبور صحراء عيذاب. والمؤكد أن وقوع قوص على طريق الحج ساهم في ازدهار هذه المدينة اقتصاديًا، وثقافياً، إذ كان يعبرها العلماء والفقهاء في طريقهم إلى الحج، كما كان يسكن قوص أعداد غير قليلة من تجار ينبع (*)، وهو الثغر المواجه لعيذاب على ساحل جزيرة العرب[٥٦]. وهو ما يشير إلى وجود علاقات مهمة بين ساكني جزيرة العرب والساحل الأفريقي.

وفي رأي البعض، فإن "قوافل الحج" التي تعبر مدينة قوص كانت تحتاج إلى حوالي عشرين يوماً على الأقل لعبور طريق الصحراء بما فيها من دروب ومسالك وعرة حتى تصل في نهاية الأمر إلى ثغر عيذاب على ساحل بحر القلزم[٥٧]. بينما حسب آخرين، كانت القوافل تحتاج إلى حوالي سبعة عشرة يوماً فقط للذهاب عبر الصحراء من مدينة قوص إلى عيذاب[٥٨].

٢ – طريق العبدين:

يتم الوصول لهذا الطريق من قوص مباشرة، وهو أحد الطريقين الرئيسيين اللذين يؤديان لعيذاب للقادمين من قوص، وهو الطريق الأقصر مقارنة بالآخرمن حيث المسافة التي يقطعها الحجاج القادمون من قوص[٥٩]. أما الطريق الآخر، فيأتي من إحدى القرى التي تقع على ضفاف النيل بالقرب من قنا، وكانت تُعرف باسم "مرقة"، ثم يجتمع هذان الطريقان بالقرب من موضع في الصحراء الشرقية يعرف بـ"ماء دنقاش" (أو ماء برقاش)[٦٠]. وقد مر ابن جبير بـ"طريق العبدين" خلال رحلته إلى الحجاز، وقد تحدث عنه قائلاً: "والقصد إلى عيذاب من قوص على طريقين، أحدهما تعرف بطريق العبدين، وهي هذه التي سلكناها، وهي أقصر مسافة، والأخرى طريق إلى قنا، وهي قرية على شاطىء النيل"[٦١]. ولهذين الطريقين موضع آخر يجتمعان فيه عند موضع آخريدعى "ماء شاغب"، وهو يقع قرب "ماء دنقاش"على مسيرة يوم[٦٢].

---

[٥٣] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ٢، هيئة الكتاب، ١٩٩١م، ص٢٩

[٥٤] المرجع السابق، ص٣٠

[٥٥] انظر، ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٧

ينبع: ميناءٌ معروف في العصر الإسلامي، اشتُهر بـ"الينبع". وكذلك: الينبوع. واسم "ينبُع" في المضارع وعُرفت المنطقة به لاشتهارها بالينابيع وآبار المياه. يقول ابنُ حوقل: "وينبعُ حصنٌ به نخيلٌ وماءٌ وزرعٌ". وهو ما يؤكده الفيروزآبادي: "وينبعُ: حصنٌ له عيونٌ، ونخيلٌ، وزروعٌ بطريق حاج مصر". وتعرف بلاد ينبع باسم "بلاد جهينة"، لأنها تعد موطن تلك القبيلة العربية. ولعل وقوع بلاد ينبُع علي طريق الحج مما زاد شُهرتها في العصر الإسلامي. وتتميز هذه المنطقة بكثرة أوديتها وينابيعها، وخصوبة تربتها، وتوجد بها الواحات، مثل ينبع النخل والعيص. واشتهر حاكم ينبع أيضا في بعض المصادر بـ"صاحب الينبوع" (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ٥، مركز تحقيق التراث، هيئة الكتاب، ١٩٨٨م، ص٣٨٦، ابن خلدون: العبر، جـ٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م، ص٢٤٧، ابن الصيرفي: إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق وتقديم: حسن حبشي، هيئة الكتاب، ٢٠٠٢م، ص٧، عبدالكريم الخطيب: تاريخ جُهينة، سلسلة تراث الجزيرة العربية، ط٣، ١٩٩٧م، ص١٧، ابن حوقل: صورة الأرض، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٣٨، وانظر أيضاً الإصطخري: مسالك الممالك، شركة نوابغ الفكر، ٢٠١١م، ص١٩، القاموس المحيط: جـ٣، ص٩٧)

[٥٦] انظر بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ص٢٥١

[٥٧] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، جـ٢، ص٣٠

[٥٨] المرجع السابق، ص٣٠

[٥٩] علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٤

[٦٠] المصدر السابق، ص١٧٤

[٦١] ابن جبير: الرحلة، ص٧٢

[٦٢] المصدر السابق، ص٧٢

٣ – ماء دنقاش:

تذكر بعض المصادر الأخرى هذا الموضع أيضاً باسم "ماء برقاش"[٦٣]. والراجح أن الاختلاف الواقع هنا بسبب خطأ وقع فيه الناسخ لاسم هذا المكان، والأصح هو الاسم الذي أورده الرحالة الأندلسي ابن جبير، وهو "ماء دنقاش"، لأن ابن جبير يُعد من أقدم من تحدث عن هذا الموضع، وكان قد عبره خلال رحلته الى بلاد الحجاز عبر دروب الصحراء العيذابية.

وفي هذا الموضع يجتمع الطريقان الرئيسيان القادمان من مدينة قوص في اتجاه صحراء عيذاب، وكان الحجاج يقيمون به مدة يوم وليلة للتزود بالماء الذي يحتاجون إليه، ثم كانوا يرتحلون بعد ذلك الى موضع آخر يُعرف باسم "ماء شاغب" (وقيل: ماء ساغب) [٦٤].

٤ – ماء شاغب:

وكان حجاج القافلة يقومون بحفر "ماء شاغب"، ربما لأن الرمال كانت تغطي الآبار بمرور الوقت بعد رحيل القوافل السابقة، وعلى هذا كان يهمل هذا الطريق بعض الوقت حتى عبور قافلة أخرى. والمؤكد أن حفر البئر لم يكن بالأمر الهين على القافلة. وعلى أية حال، كان الحجاج يسقون إبلهم في هذا الموضع، وكانوا يتزودون منه لثلاثة أيام[٦٥]. وبعد أن يقضي الحجاج مأربهم من "ماء شاغب"، كانوا يرتحلون منه لمحطة أخرى في الطريق إلى عيذاب.

٥ – أمتان:

وكلما توغل الحجاج في الصحراء زادت وعورة الطريق، وصار أكثر مشقة، لكن ذلك يهون في سبيل غايتهم الكبرى[٦٦]. وهو ما يشير إليه الرحالة بوركهارت، فإنه رغم المشقة، وهلاك الكثير من الحجاج خلال رحلة الحج، لكن هذه المخاطر لم تكن لتوهن عزيمتهم، ولا تنقص عددهم في كل عام، إذ إن ضحايا هذه الرحلة المقدسة يُعدون شهداء في سبيل الله[٦٧]. وتزداد المشقة بسبب قلة الماء، وهو ما يشير إليه الحسن الوزان: "ولا يوجد في هذه الصحراء ماء حتى الساحل"[٦٨]. وهو ما يعني أن الطريق لعيذاب في أيامه (في القرن ١٠هـ/١٦م) صار الحصول على الماء أمرًا صعب المنال عن ذي قبل. وتبلغ القافلة بعد ذلك موضع يدعى "أمتان"، وبها بئر ماء عذبة، وكان الحجاج يكثرون الإقامة بها أكثر من غيرها، إذ إنه ليس أمرًا هينًا العثور على موضع آخر بالصحراء مثله. يقول ابن جبير: "وهذا الماء بأمتان المذكورهو في بئر معينة، قد خصها الله بالبركة، وهو أطيب ماء الطريق، وأعذبها، فيلقى فيهاء دلاء الوارد ما لا يحصى كثرةً"[٦٩].

وكان الماء الذي يوجد بمنطقة "أمتان" لفرط بركته يكثر قدوم الناس إليه، وكذلك لما فيه من الماء العذب الطيب، وذلك أكثر من غيرها من مواضع الماء الأخرى في هذه الصحراء التي تقع بين مدينة قوص وثغر عيذاب، "فتُروى القوافل النازلة عليها على كثرتها، وتروى من الإبل البعيدة الأظماء، ما لو وردت نهرًا من الأنهار لأنضبته وأنزفته"[٧٠].

٦ – مجاج:

ثم تمضي قافلة الحجاج في مسيرها، وتبلغ موضعًا آخر في "الصحراء العيذابية"، وهو الذي يُعرف باسم "مجاج"، وكانت القوافل تتزود في هذه المنطقة لمدة أربعة أيام، ثم كانت تذهب القوافل منه إلى موضع آخر يعرف باسم "العشراء"

---

[٦٣] للمزيد انظر ابن جبير: المصدر السابق، ص٧٢، الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٤

[٦٤] الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٤

[٦٥] المصدر السابق، ص١٧٤

[٦٦] الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة: عبدالرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٦١٥، وانظر أيضا ابن جبير: الرحلة، ص٧٤–٧٥، ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٨

[٦٧] للمزيد انظر، رحلات بوركهارت: ص٣٢٦

[٦٨] الوزان: وصف أفريقيا: ص٦١٥

[٦٩] ابن جبير: الرحلة، ص ٧٢

[٧٠] ابن جبير: الرحلة، ص٧٢، الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٤

فيما يذكر الرحالة ابن جبير[٧١]. وهذا الموضع يقع على مسيرة يوم من ثغر عيذاب، ويطلق ابن جبير على هذه المرحلة من رحلة القوافل اسم "المرحلة المجاجية"، نسبة لموضع "مجاج" هذا[٧٢].

٧ – رملة ميثاء:

يقع هذا الموضع بعد "مجاج" و"العشراء"، حيث يسلك الحجاج الطريق من هناك إلى "رملة ميثاء"، وهي منطقة تتصل بساحل بحر جدة (بحر القلزم) [٧٣]. وتصف المصادر هذه المنطقة بأنها "فيحاء مد البصر يميناً وشمالاً ([٧٤]). وفي هذا الموضع تكاد تكون القوافل قريبة من عيذاب، وساحل بحر القلزم، وهو المقصد الرئيس لقوافل هؤلاء الحجاج.

٨ – العشراء:

وهذا الموضع من أقرب المواضع من عيذاب، والراجح أن موضع "العشراء" هو ذاته "الحميثراء" التي بلغها أبو الحسن الشاذلي خلال رحلته إلى الحج، وهناك لقي الشيخ ربه. وتقع "العشراء" على مسيرة مرحلتين من ثغر عيذاب [٧٥]، وهي منطقة تشتهر بآبار الماء، كما يكثر بها شجر يُعرف باسم "شجر العشر"، وهو نوع من الشجر يشبه الأترج، لكن لا شوك له[٧٦].

٩ – ماء الخبيب:

ثم يتجه الحجاج إلى موضع آخر يدعى "ماء الخبيب" [٧٧]. ويذكره ابن بطوطة "ماء الجنيب" [٧٨]. وهو من أقرب مواضع الصحراء لعيذاب، وكان الحجاج يتوقفون به للتزود بالماء قبل نهاية الرحلة[٧٩]. ويمكن للحجاج هناك رؤية ثغر عيذاب الذي يبعد نحو ميلين، وكانت القافلة تتوقف هناك للتزود بالماء. يقول ابن جبير: "فنزلنا ضحوة على ماء الخبيب، وهو بموضع بمرأى العين من عيذاب، يستقي منه القوافل وأهل البلد...وهي بئر كبيرة كأنها الجب الكبير"[٨٠].

١٠ – الحُميثراء:

وفي هذه المنطقة انتهت رحلة أبي الحسن الشاذلي، ومات بها قبل أن يبلغ بلاد الحجاز [٨١]. ويتميز الطريق إلى الحميثراء بأنه وعر، هو وشاق للإبل القادمة مع الحجاج[٨٢]. واللافت أن ابن جبير لم يذكر "الحميثراء" خلال رحلته، رغم أن كتاباته تُعد من أهم المصادر التي وصفت الطريق من قوص لعيذاب. وربما سبب ذلك أن هذه المنطقة (أي الحميثراء) زادت أهميتها بعد أن دُفن بها الشاذلي، أي بعد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، أي بعد وفاة ابن جبير بحوالي نصف قرن.

---

[٧١] الرحلة: ص٧٣

[٧٢] ابن جبير: المصدر السابق، ص٧٣، الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٥

[٧٣] ابن جبير: الرحلة، ص٧٣

[٧٤] الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص٧٥

[٧٥] المصدر السابق، ص١٧٥

[٧٦] المصدر نفسه.

[٧٧] ابن جبير: الرحلة، ص٧٣

[٧٨] ابن جبير: المصدر السابق، ص٧٣، الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٥

[٧٩]) ابن جبير: ص٧٣، الخطط التوفيقية: المصدر السابق، ص١٧٥

[٨٠]) المصدر السابق، ص٧٣

[٨١] وللمزيد عن الروايات التي تحدثت عن موت أبي الحسن الشاذلي بالحميثراء أو صحراء عيذاب، انظر ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٦٨–٦٩، ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية، ص٥٤–٥٥، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣، النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ٢، ص٣٦٥، علي مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٩، عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص١٣٩

[٨٢] ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٨، الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٤

بينما يذكر ابن جبير موضعاً آخر باسم "العشراء"، وهو يقع على مسافة يوم واحد من ثغر عيذاب[٨٣]. ولعل هذا الموضع هو ذاته منطقة "الحميثراء" المشهورة، لكن وقع خطأ في نسخ الاسم، وهو فيما يبدو جعل اسم "الحُميثراء" يكتب "العشراء". وتُوصف منطقة الحميثراء بأنها أرض "ذات عين ماء زعاق"، وهي أرض كثيرة الضباع[٨٤]

رابعًا – كرامات الشاذلي خلال رحلة الحج في صحراء عيذاب (*):

لما استقر أبو الحسن الشاذلي بـ "صحراء عيذاب" خلال رحلته إلى الحج، وقعت له هناك عدة كرامات أفاضت فيها المصادر الصوفية إبرازاً لمكانته. ومنها ما يُذكر أنه لقي الخضر عليه السلام هناك، فقال له الخضر(حسب هذه الرواية): "يا أباالحسن، أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صحباً في المقام والرحيل" [٨٥]. ومما ورد أيضاً أنه لما أقام بالصحراء كانت ذات ماء أُجاج، فكان من كراماته أنه صار عذباً فُراتًا.[٨٦] كما تذكر إحدى الروايات أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي دعا الله تعالى قائلاً: "اللهم متى اللقاء ؟ فقيل: يا علي إذا وصلت إلى حُميثرة، فحينئذ يكون اللقاء فقال الشاذلي: رأيت كأني أُدفن إلى ذيل جبل بإزاء بئر ماؤها قليل، مالح، فوقع في نفسي شيء، فحفظت في سري: ماؤها يكثر ويعذب"[٨٧].

خامسًا – وفاة الشاذلي في حُميثراء بصحراء عيذاب (٦٥٦هـ/١٢٥٨م):

لما كان أبوالحسن الشاذلي بـ "حُميثراء"، اغتسل، وصلى ركعتين، ولما كان في سجدته الأخيرة قبضه الله [٨٨]. ولعلها من كراماته أيضاً أن يموت في الصلاة ساجداً، كما أنه مات في الطريق للحج. ومما ورد في موته أنه لما خرج في حجه الأخيرة، كان يشعر بدنو الأجل. وحسب روايات الصوفية أنه لما أمررفاقه أن يتحركوا جميعاً بأهلهم. وأراد شاب الخروج معهم، فجاءت أمه وقالت: يا سيدي لعل أن يكون نظرك عليه، فقال: يكون نظرنا عليه إلى حميثرة (حميثراء). فلما بلغوا صحراء عيذاب، مرض الشيخ والشاب، ثم مات الشاب، فقال الشاذلي: احملوه لحميثرة، فلما وصلوا إليها غسلوه، ثم صلى عليه، فكان أول من دفن بها، ثم مات الشاذلي في ذات الليلة[٨٩]. وفي رواية أنه أوصى أتباعه قبل الخروج للحج أن يجهزوا معهم فأساً وحانوطاً، وما يجهزبه الموتى، وكانت إشارة لموته في طريق الحج [٩٠]. ويذكرأنه لما عزم السفر في المرة التي مات فيها قال: "في هذا العام أحُج حجة نيابة"، فمات قبل أن يطأ مكة. فلما انتهى أتباعه من الحج عادوا للقاهرة، وأتوا العز بن عبدالسلام، وسألوه عن ذلك، فبكى وقال: "والله أخبركم بموته في سفره، وما عندكم علم به، وقد أخبركم أن أحد الملائكة يحُج نيابة عنه"[٩١].

---

[٨٣] ابن جبير: الرحلة، ص٧٣

[٨٤] ابن بطوطة: الرحلة، جـ١، ص٤٨، علي مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، ص١٧٨.

(*) عيذاب: يقع ثغر عيذاب على مسافة درجتين من جدة، وهي أشبه بالضيعة منها للمدن، يقول أبو الفداء: "اختلف في عيذاب، فبعضهم يحد ديار مصر على وجه تدخل فيه، وهو الأشبه، لأن الولاية فيها من مصر، وهي من أعمال مصر حقيقية، وبعضهم يجعلها من بلاد البجا...وهي فرضة لتجار اليمن وللحاج الذين يتوجهون من مصر في البحر، فيركبون من عيذاب إلى جدة" (المختصر في أخبار البشر، جـ١، دار المعارف، ص٩٥). وقال تقي الدين المقريزي: "اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص، ثم يركبون الإبل من قوص، ويعبرون الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر في الجُلاب إلى جدة ساحل مكة، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر إلى عيذاب....وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع، وتقلع منها مراكب الحجاج الصادرة والواردة" (المواعظ والاعتبار، جـ١، ط مكتبة الآداب، دون تاريخ، ص٢٠٢). وللمزيد، انظر محمد رجائي الطحلاوي: عيذاب، دار الكتاب الحديث، دون تاريخ).

[٨٥] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣، وانظر النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ٢، ص٣٦٥

[٨٦] النبهاني: المصدر السابق، ص٣٦٥

[٨٧] ابن عياد: ص٥٥

[٨٨] الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٨

[٨٩] ابن عياد: المفاخر العلية، ص٥٤-٥٥

[٩٠] عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص١٣٩

[٩١] ابن عياد الشافعي: المصدر السابق، ص٥٦

وعلى أية حال مات الشاذلي بصحراء عيذاب في حجته الأخيرة سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، يقول الشعراني: "وحج (أي الشاذلي) مرات، ومات بصحراء عيذاب قاصداً الحج في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة.."[٩٢]. وقيل في رواية أخرى إنه مات هناك في شهر رمضان، وليس ذي القعدة [٩٣]. وقيل: مات في شهر شوال [٩٤]، وكان عمره في ذلك الوقت ثلاثاً وستين سنة [٩٥]. وعن موته يقول ابن تغري بردي: "والعارف بالله أبوالحسن بن علي..الشاذلي، الضرير، (مات) بصحراء عيذاب في ذي القعدة.."[٩٦]. وعلى هذا مات الشيخ بعد أن أصابه العمى.

ومن فضائل حميثراء وبركتها التي مات بها الشاذلي أنه دعا الله: "يارب أسكنتني بلاد القبط، أدفن بينهم، فقيل له: يا على تدفن في أرض ما عصيت عليها قط"[٩٧]. وقد صار قبر الشاذلي مقصداً لزوار عيذاب، وكل قوافل الحج والتجارة التي تمر بهذا الطريق عبر مدينة قوص، وزار قبره الرحالة القدامى، ومنهم ابن بطوطة: "زُرتُ قبره، وعليه مكتوب فيها اسمه، ونسبه متصلاً إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما"[٩٨]. والصحيح أن الشاذلي ينتسب لنسل الحسن بن علي، وليس الحسين. وكان الناس يؤثرون الإقامة بجوار قبر الشاذلي[٩٩].

سادسًا – أثر رحلة حج الشاذلي الروحي في سودان وادي النيل:

بقدر ما نال الشاذلي من مكانة دينية وروحية رفيعة في حياته، بقدر ما نالت طريقته في التصوف من شهرة في العالم الإسلامي، وخاصة في مصر وسودان وادي النيل، والمغرب. يقول د.عامر النجار: "تستطيعُ أن نلمح من خلال ما كتب عنه الخطوط العريضة لهذه الشخصية الكبيرة التي كان لها تأثير واضح في حركة التصوف في مصر والتي لا تزال أثارها حتى الآن أوضح ما يكون في انضمام كثير من عامة الشعب وخاصته إلى هذه الطريقة الكبيرة"[١٠٠].

وتقوم طريقته على ضرورة الالتزام بما ورد في كل من الكتاب والسُنة، وألا يخالف أتباعه ذلك مهما كان، ومن ذلك قوله المشهور: "إذا عارض كشفُك الكتاب والسُنة، فتمسك بالكتاب والسُنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسُنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة"[١٠١]. وقد لاقت "الطريقة الشاذلية" انتشاراً في بلاد المغرب، وخاصة في مراكش، وذلك خلال القرن ٩هـ/١٥م على يد الشيخ "أبي عبدالله محمد بن سليمان الجزولي"[١٠٢]. وهو الذي تُنسب إليه "الطريقة الجازولية" الشاذلية [١٠٣].

ويُعد الفقيه محمد بن عبدالرحمن الجزولي من كبار شيوخ "الطريقة الشاذلية"، وهو مؤلف كتاب "دلائل الخيرات"، وهو يعد من أهم الكتب في هذه الطريقة، وقد أخذ العلم عن علماء فاس، وحفظ المدونة (أي مدونة سحنون) في الفقه المالكي. ومن مؤلفاته "حزب الفلاح"، و"حزب الجزولي" بالعامية، ويُعرف أتباعه باسم "الجازولية. وقد مات مسموماً في

---

[٩٢] الطبقات الكبرى: جـ٢، ص٣٦٣

[٩٣] النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ص٣٦٥

[٩٤] المصدر السابق، ص٣٦٥

[٩٥] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٦٣، الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٩

[٩٦] النجوم الزاهرة: جـ٧، ص٦٨–٦٩

[٩٧] ابن عياد: المفاخر العلية: ص٥٤، الخطط التوفيقية: جـ١٤، ص١٧٩

[٩٨] الرحلة: جـ١، ص٢٥٥، الخطط التوفيقية: ص١٧٨

[٩٩] ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٥٥

[١٠٠] الطرق الصوفية في مصر: ص١٣٠

[١٠١] المرجع السابق، ص١٣٧

[١٠٢] انظر عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥٣، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م، ص٢١١، هامش رقم ١٢٤

[١٠٣] تعد الطريقة الجازولية من فروع "الطريقة الشاذلية" التي ذاعت في المغرب، وذلك بعد أن تناولها المراكشيون بالإصلاح حوالي سنة ١٤٦٥م (انظر عامر النجار: المرجع السابق، ص١٤٦)

سنة ٨٧٠هـ/١٦٤٥م[١٠٤]. والمؤكد أنه كان لشيوخ "الطريقة الشاذلية"، سواء من المغاربة أم المصريين، دور كبير في نشر هذه الطريقة في سودان وادي النيل، وكذلك في بلاد شرقي أفريقيا. وكان كثيرون منهم قدموا من بلاد المغرب، ثم سكنوا مصر، ثم ارتحلوا إلى سودان وادي النيل، وهو ما ساعد على انتشار هذه الطريقة في هذه البلاد بعد ذلك، ومن هؤلاء الشيخ الجازولي[١٠٥].

ولسنا نشك في أن زيارات الشاذلي إلى مكة عدة مرات عبر قوص– عيذاب كان من الأسباب المهمة التي ساعدت في انتشار "الطريقة الشاذلية"، وأفكارها في مصر وسودان وادي النيل، وخاصة مع وفاة الشيخ أبي الحسن الشاذلي بـ "صحراء عيذاب"، ثم دفنه في منطقة "الحُميثراء". وهو ما جعل أتباع هذه الطريقة وشيوخها يتوافدون على هذه المنطقة لزيارة قبره، والدعاء له. وهو ما أدى إلى رواج أفكار هذه الطريقة في مناطق سودان وادي النيل بصفة عامة.

ولعل من أهم شيوخ الطريقة الذين تركوا أثراً كبيراً في مصر وسودان وادي النيل العارف بالله "محمد وفا الشاذلي" (٧٠٢–٧٦٥هـ)، وكان عالماً فقيهاً، وله مصنفات عدة [١٠٦]. وهو ممن نشروا الطريقة الشاذلية في تلك البلاد، واسمه محمد بن محمد النجم بن محمد السكندري، الملقب بـ"وفا"، من أصل مغربي، ولد بالإسكندرية، ونشأ بها، وسلك طريق الشاذلي. ثم رحل لأخميم بصعيد مصر، وتزوج بها، وأقبل عليه الأتباع والمريدون، وكان لوعظه أثر في القلوب[١٠٧].

واشُتهر هذا الشيخ الشاذلي بـ "وفا"، وسبب ذلك أن النيل قل ماؤه، وتوقف عن الزيادة، ولم يزد إلى آوان الوفاء، فعزم جماعة من أهل مصرعلى الرحيل منها خشية العطش والمجاعة، فجاء الشيخ وفا إلى النيل، وقالوا إنه اطلع بإذن الله تعالى إلى النهر، فزاد في ذلك اليوم سبعة عشر ذراعاً، وأوفى النهر، ولهذا دعا الناس هذا الشيخ باسم "وفا"([١٠٨]). ويرى البعض أن الشاذلية دخلت السودان قبيل قيام "سلطنة الفونج" (في القرن ١٠هـ/١٦م)، وارتبط انتشار هذه الطريقة في سودان وادي النيل بالشيخ الجزولي، وكذلك الشيخ حمد أبي دنانة، حيث تزوجت إحدى بنات الشيخ الجزولي من الشريف حمد أبي دنانة، وهو الذي نزح بعد ذلك إلى سودان وادي النيل، وكان برفقته ابنه الحسن. ثم سكن سقادي، ومنذ ذلك الوقت انتشرت الطريقة في مناطق السودان[١٠٩]. وحسب هذه الرواية فإن الشاذلية تعد أول الطرق الصوفية انتشاراً في السودان[١١٠].

ومن كبار شيوخ الشاذلية بالسودان، الفقيه حمد بن المجذوب، حفظ القرآن، وتفقه في مختصر خليل بن إسحاق، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني [١١١]. وقد حج الشيخ عدة مرات، وأخذ الطريقة عن الدراوي تلميذ الشيخ أحمد بن ناصر الشاذلي. وكان يكثر من قراءة "دلائل الخيرات"، وهو ممن جمع بين الفقه والتصوف، وأعطاه الله القبول، ومات عن خمسة وثمانين سنة، ودفن بالدامر، وقبره معروف هناك، ويزوره أتباع الطريقة [١١٢]. وبعد وفاة الشيخ المجذوب، صار أحفاده

---

[١٠٤] انظر ود ضيف الله: كتاب الطبقات، ص١١٤، عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، ص٥٣، ومن فروع الطريقة الشاذلية الأخرى المعروفة في أفريقيا "السنوسية"، ومؤسسها محمد بن علي السنوسي في ليبيا سنة ١٢٥٠هـ. ولعبت هذه الطريقة دوراً مهماً في نشر الإسلام في أفريقيا، وتهدف لإصلاح المسلمين، ونشر الدين. وقد تأثرت السنوسية بافكار الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي ذاعت في جزيرة العرب. وتقوم هذه الطريقة على الالتزام بالآوامر القرآنية بحرص شديد، وتتفق أفكارها مع مبادىء التوحيد المطلق التي تجعل التعبد لله وحده، وتحرم التضرع للأولياء، وزيارة قبورهم تحريماً تاماً (انظر عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي: في السودان، ص٥٦، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص٤٧)

[١٠٥] ضيف الله: الطبقات، ص٣، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص٢٠١، ص٢١١، هامش رقم ١٢٤

[١٠٦] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٩٢

[١٠٧] ود ضيف الله: المصدر السابق، ص١١٤

[١٠٨] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٩٣

[١٠٩] ود ضيف الله: كتاب الطبقات، ص٣، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص٢٠١، ص٢١١، هامش١٢٤

[١١٠] المصدر نفسه، ص٣

[١١١] المصدر السابق، ص١٨٧

[١١٢] المصدر السابق، ص١٨٧ – ١٨٨

يُعرفون من بعده باسم "المجاذيب" [١١٣]، وهي أحد فروع "الطريقة الشاذلية" [١١٤]. وازدهرت هذه الطريقة في الدامر، وعرفت أيضا بـ"المجذوبية"[١١٥]. وقد اشتهرت طريقة المجاذيب الشاذلية في جزيرة سواكن، حيث أسس أتباع تلك الطريقة الخلاوي الصوفية لهم هناك[١١٦].

كما انتشرت خلاوي طريقة المجاذيب أيضاً في المناطق المجاورة للبحر الأحمر، وكذلك باقي بلاد البجة، ويرجع الفضل لاشتهار تلك الطريقة في شرق السودان للشيخ طاهر المجذوب [١١٧]. وظهرت طريقة تعرف باسم "أبي جريد" التي ينسبها البعض للشاذلية، لابن شريف مكي ينتسب للإمام الحسين، قدم السودان من مكة مع الشيخ عبدالله بن دفع الله العركي، وكان بهذا الطريقة الكثير من الأمور المنكرة من الغيبيات والسحر والكهانة[١١٨]. ثم ترسخت دعائم "الطريقة الشاذلية" في السودان على يد الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم (ت: ١٧٤٢م)، وهو الذي اشتهر باسم الشيخ "خوجلي الشاذلي"، لأنه كان يعد من كبار شيوخ هذه الطريقة بالسودان[١١٩]. وكان جده من تلاميذ أولاد جابر الأربعة [١٢٠]. ويقول "صاحب الطبقات" عن الشيخ خوجلي: "ومن أخلاقه تمسكه بالكتاب والسُنة، ومتابعة السادة الشاذلية في أقوالهم وأفعالهم" [١٢١].

ومما قيل عن طريقة الشيخ خوجلي الشاذلي في التصوف: "وأصل طريقته فالأساس قادري، والأوراد والأخلاق شاذلي" [١٢٢]، وهو ما يعني أن الشيخ خوجلي كان في الأصل من أتباع "الطريقة القادرية" التي أسسها عبدالقادر الجيلاني في سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م [١٢٣].

وهي طريقة ترتبط بالمذهب المالكي[١٢٤]. ثم تحول بعد ذلك لطريقة الشاذلي بعد ذلك. وقد اشُتهر هذا الشيخ فيما تذكر الروايات الصوفية بالكرامات، والعجائب، ولعل منها أن امرأة مرضت مرضاً عضالاً، وأشرفت على الموت،

---

[١١٣] عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، ص٥٣

[١١٤] يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، جـ١، دار التأليف والترجمة، ١٩٧٥م، ص٧٦

[١١٥] المرجع السابق، ص٧٦

[١١٦] بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مؤتمر سواكن التاريخ، الحضارة والعمق الحضاري، كتاب الخرطوم، ٢٠١١م، ص٢٤٢

[١١٧] بدوي الطاهر: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص٢٤٢

[١١٨] عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي، ص٥٣

[١١٩] ود ضيف الله: الطبقات، ص١٩٠، عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، ص٥٩

[١٢٠] ود ضيف الله: الطبقات، ص١٩٠

[١٢١] المصدر السابق، ص١٩٢

[١٢٢]) المصدر السابق، ص١٩٢

[١٢٣] توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٧١، وللمزيد عن هذه الطريقة ومؤسسها عبدالقادر الجيلاني (١٠٧٧-١١٦٦م)، انظر عبدالوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢١٦، النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ٢، ص٢٢٤، كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٧١،

J. D. Fage: Ahistory of West Africa, Cambridge University Press, 1969, P. 37

[١٢٤] للمزيد عن الطريقة القادرية وارتباطها بالفكر والمذهب المالكي، انظر هوبير ديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة: أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة: القاهرة، ٢٠١١م، ص١٣٥

فسأل أهلها الشيخ أن يدعو الله أن يشفيها، فدعا، وقرأ بعض الآيات على ماء، وشربت منه المرأة، فبرأت من مرضها، وكُتب لها العافية.[١٢٥]

وكان الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن ممن يكثر الاقتداء بالشيخ أبي الحسن الشاذلي، حيث كان يفعل الكثير من الأشياء والعادات التي اشتهرت عنه[١٢٦]. كما كان الشيخ خوجلي يكثر من قراءة أوراد "الطريقة الشاذلية"، وقد ذاعت شهرته في السودان، وزاد محبوه، وأتباع طريقته، وعن ذلك يقول "صاحب الطبقات": "فقد اقتدت الأمة به من كل ناحية، واتخذته إماماً، وانتفعوا بطريقته، ومشورته، والاستغاثة به عند الأمور المهمات"[١٢٧].

ولعل هذا القول يشير إلى انتشار "الطريقة الشاذلية" بين السودانيين، وأن الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن هو الذي يرجع له الفضل الكبير في ذيوعها وانتشارها هناك. ومما يروى عن هذا الشيخ أنه ظهرت جزيرة من الرمال بين الماء وسواقي المحس بجزيرة توتي، فجاء المحس للشيخ، ووضعوا عنده الطواري والقداديم (جمع قدوم)، والفؤوس وقالوا: "لا يسعنا المقام في هذا البلد بعد فساد زرعنا من عدم الماء"، فقام الشيخ معهم، ثم وضع عصاه في البحر، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ أحد أحزاب الطريقة الشاذلية المعروفة، وهو "حزب البحر" (الحزب الرابع). وحدث بعد ذلك أن هاج ماء البحر وارتفع، واختفت هذه الجزيرة، وامتلأت السواقي بالماء، "وثبت للناس ببركته فصارت هذه الكرامة باقية إلى زماننا"، وذلك حسب رواية "صاحب الطبقات"[١٢٨].

وكان الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن رجلاً له هيبة بين الناس، كما كانت له مهابة ومكانة بين الحكام والسلاطين، وكان رجلاً لا يخشى في الله لومة لائم، ولهذا كان يخشاه السلاطين، وذلك إلى الحد أنه يروى أنهم كانوا يكونون كالأطفال في حضرة هذا الشيخ، وذلك لما كان له من فرط الهيبة، وقوة الشخصية أمامهم[١٢٩].

---

[١٢٥] يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، جـ١، ص٧٦

[١٢٦]) ود ضيف الله: الطبقات، ص١٩٣

[١٢٧] المصدر السابق، ص١٩٧

[١٢٨] المصدر السابق، ص١٩٧

[١٢٩] عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي، ص٥٩

الخاتمة

- أكدت هذه الدراسة أن شخصية الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وطريقته في الزهد والتصوف، تُعد أقرب الطرق إلى منهج السنة الصحيحة، رغم ما قد وقع في طريقته من بعده، وهذا الأمر كان الشيخ الشاذلي يحث تلاميذه، وأتباعه عليه، وكان يقول لهم مؤكدًا على ذات الفكرة أنه إذا خالف كشف الصوفي الكتاب والسُنة، فعلى المرء أن يلزم الكتاب والسُنة، لأنهما مصدران معصومان عن الخطأ والذلل، بينما كشف الصوفي غير معصوم.
- بينت الدراسة أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي صارت له مكانة علمية كبيرة بمصر بعد أن هاجر إليها قادمًا من بلاد المغرب، وطاب له المقام بها، وكان يحضر دروسه كبار العلماء والفقهاء بمصر، ولعل منهم شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام، وابن الصلاح، والحافظ المنذري، وابن الحاجب، وغيرهم.
- قام الشيخ أبو الحسن الشاذلي بالحج عدة مرات، وسلك خلال رحلته الأخيرة الى بلاد الحجاز ذات الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من بلاد المغرب والسودان، وهو الطريق المعروف باسم طريق (قوص – عيذاب) في ذلك الوقت، خاصة بعد أن تحول "موكب الحج" المصري إلى هذا الطريق بسبب الأخطار التي كانت تحيط بـ "طريق الحج" عبر بلاد الشام (الدرب الشامي) بسبب الاعتداءات الصليبية على قوافل الحجاج منذ نهايات "الدولة الفاطمية"، ودامت تلك الاعتداءات خلال عصري كل من الدولة الأيوبية، ودولة المماليك.
- وأشارت هذه الدراسة إلى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي مات خلال رحلته الأخيرة إلى الحج، ثم إن أتباعه ومريديه دفنوه بمنطقة "الحميثراء" التي تقع بـ "صحراء عيذاب"، وهو ما كان له أثره الكبير في هذه المنطقة وما جاورها، وساهم ذلك في انتشار "الطريقة الشاذلية"، وزيادة أعداد أتباعها، خاصة في كل من مصر سودان وادي النيل.
- وأكدت الدراسة أن شيوخ "الطريقة الشاذلية"، من المغاربة والمصريين، لعبوا دورًا كبيرًا في نشر هذه الطريقة في الزهد والتصوف في سودان وادي النيل، وكذلك في بلاد شرقي أفريقيا. وكان كثيرون منهم قدموا من بلاد المغرب إلى أرض مصر، ثم طاب لهم المقام بها، ومن ثم ارتحلوا بعد ذلك إلى سودان وادي النيل، وهو ما ساعد على انتشار هذه الطريقة، وزيادة أتباعها هناك بعد ذلك.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

- الشعراني: الطبقات الكبرى، المكتبة التوفيقية، ٢٠١١م.
- الإصطخري: مسالك الممالك، شركة نوابغ الفكر، ٢٠١١م.
- ابن الطيب: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، دارالعراب، دون تاريخ.
- أبوالفداء: المُختَصَر في أخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، الجزء الثالث، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ.
- المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف أيضا باسم: خطط المقريزي)، الجزء الأول، طبعة مكتبة دار الآداب، دون تاريخ.
- النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ٢، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ.
- النويري: نهاية الأرَب فى فنون الأدب، تحقيق: د. محمد عبدالهادى شعيرة، مراجعة: دكتور محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، ١٩٩٠م.
- أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، الجزء الثالث، ترجمة وتقديم وتعليق: الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، جـ١، المكتبة التوفيقية، دون تاريخ.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء السابع، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- ابن تغري بردي: المنهل الصافي، الجزء الخامس، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
- الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م.
- ابن حوقل: صورة الأرض، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- ابن خلدون: العبروديوان المبتدأ والخبر،الجزء الثاني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م .
- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- ابن الصيرفي: إنباء الهِصر بأنباء العصر، تحقيق وتقديم: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث، ٢٠٠٢م.
- عبد الكريم الخطيب: تاريخ جُهينة، سلسلة تراث الجزيرة العربية، ١٩٩٧م.
- ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، مكتبة القاهرة، ١٩٦٤م.
- على باشا مبارك: الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الجزء الرابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.
- ود ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.

ثانيًا – المراجع العربية:

- توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.
- جلال يحيى: البحر الأحمر والاستعمار، المكتبة الثقافية، ١٩٦٢م.
- حسن إبراهيم حسن: انتشارالإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤م.

- عادل عبدالحافظ حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.
- عبد العزيز أمين عبد الجواد: التربية في السودان (من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر)، جـ١، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، دون تاريخ.
- عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- عليه عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الإسلامية في العصور الوسطى، ندوة تاريخ سواحل مصر الشمالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصرالمملوكي،الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- محمد رجائي جودة الطحلاوي: عيذاب (دراسة تاريخية جغرافية جيولوجية)، دار الكتاب الحديث، دون تاريخ.
- محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
- مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، مطبوعات جامعة القاهرة، الخرطوم، ١٩٧٢م.
- مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١م.
- نعوم شقير: تاريخ السودان، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم، دون تاريخ.
- يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، الجزء الأول، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م

ثالثًا – المراجع المُعربة:

- آنخل جونزالز بالنسيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م،
- بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة: فؤاد أندراوس، تقديم: محمد الصياد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١٦م.
- ديفيد جورج هوجارت: اختراق الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، طـ٢، القاهرة، ٢٠٠٩.
- هوبير ديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة: أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة: القاهرة، 2011م.

رابعًا – الدوريات العربية:

- بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مؤتمر سواكن التاريخ، الحضارة والعمق الحضاري، كتاب الخرطوم، ٢٠١١م.
- شوقي عطاالله الجمل: كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين كمصدر لتاريخ العرب (كتاب وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، (عدد نوفمبر)، ١٩٩٨م.
- هشام بن محمد عجيمي: قلعة الأخضر في طريق الحج الشامي دراسة تاريخية وثائقية، المجلة المصرية للآثار الإسلامية (مشكاة)، العدد الثاني، ٢٠٠٧م.

خامسًا – المرجع الأجنبية:

- J. Spencer trimingham: A History of Islam in West Africa, Oxford Paperback Oxford University Press, Londen, 1975, P. 157.
- J. D. Fage: Ahistory of West Africa, Cambridge University Press, 1969, P. 37